اللغة القبطية

نشأتها وتطورها

للدكتور باهور لبيب

قبل أن نتحدث عن اللغة القبطية نشأتها وتطورها يجدر بنا أن نعرض لهذه اللفظ ومدلوله وأصله واشتقاقه لأن البحث عن أصل الكلمة يجنبنا الملام عن معالم كثيرة تنير الطريق للباحث وتبعده عن الوقوع في الخطأ . فلفظ (قبطي) نسبة الى (قبط) وهنا نرى ياء النسبة العربية . أما كلمة (قبط) فهي تحريف للفظ اليوناني والروماني الذي أطلقه اليونانيون والرومانيون من بعدهم على مصر والمصريين بعد حذف السابق (اي) واللاحق (وس) وبقيت كلمة — جيبط — بالجيم المعطشة التي تنطق عادة (ق) ، لذلك كتبت الكلمة بها أي (قبط) بمعنى مصري . ولا شك في أن يونانية هذا اللفظ الخاص بمصر وشعبها لدلالة قوية على العلاقات القديمة التي كانت قائمة بين مصر واليونان فالتاريخ يحدثنا والآثار تؤيده على ان العلاقات اليونانية المصرية بدأت في أوائل الدولة الحديثة أي في عصر التوحيد الثالث (١٥٨٠ — ١٠٨٥) ق . م . وذلك ان بعض الفراعنة استعان بالجنود اليونانيين المرتزقين في بعض حروبهم

وأخذت هذه الصلة تنمو تدريجيًا حتى إننا نجدها تجارية في العصر الذي سبق حكم الفرس لمصر . وبعد دخول قمبيز عاصمة الفرس البلاد نزح كثير من التجار اليونانيين وتبعهم عدد عظيم من علماء اليونان ومفكريهم الذين عنوا بدراسة تاريخ مصر وآثارها ودينها وأخلاق اهلها ، نذكر منهم هيرودوتس المؤرخ وأفلاطون الفيلسوف وهوميروس الشاعر وارفيوس الموسيقي وغيرهم وهكذا أصبحت مصر كعبة القصاد من بلاد اليونان المختلفة من تجار وعلماء وجنود حتى ان (بسماتيك الاول) مؤسس الاسرة السادسة والعشرين (وأول ملك من ملوك عصر التوحيد الرابع) منح الجالية اليونانية جزاء المساعدة التي قدمها له جنود اليونان بعض الاحياء من البلاد لتكون خاصة بهم وبأسراتهم من بعدهم كالحي الخاص باليونانيين في مدة منف وفي بلدة دفنة . ثم في عصر الملك احمس الثاني خصصت لهم مدينة (نوقراتيس) وموقعها الحالي بالقرب من صفط الملوك

لذلك لا نعجب أن نرى بعد ذلك شعب مصر يرحب بقدوم الاسكندر ويرسم كهنة آمون له ابنًا لكبير آلهتهم آمون ومنحه سائر الالقاب الفرعونية الخمسة . توفي الاسكندر

وورثه البطالسة فأخذت الصلة بين مصر واليونان تقوى حتى صارت اللغة اليونانية هي اللغة الرسمية وقد بقيت كذلك حتى دخول العرب مصر وتعددت العلاقات الثقافية الى السياسية إذ أصبحت مصر تحت حكم اليونان مدة طويلة (٣٣٢ ق . م . الى ٣٠ ق . م .) وكانت هذه المدة الطويلة كافية لتوثيق العلاقات بين الشعبين المصري واليوناني وكافية أيضاً لان يلمس المصريون الفرق بين الكتابتين اليونانية والمصرية القديمة متمثلة في الهيروغليفية والهيراطيقية والديموطيقية فيما الكتابة اليونانية ، وان كانت من أصل مصري ، تتطور وتصبح أكثر ملاءمة للحياة في ذلك الوقت إذ بالمصرية تبقى محافظة على صورها وأشكالها القديمة المختلفة . لذلك شعر المصريون بالحاجة القصوى الى وجوب العدول عن الكتابة المصرية القديمة الى الأبجدية اليونانية التي كان المصريون قد أخذوا في استعمالها بخاصة في كتابة أسماء الاعلام. ثم قاد هذه الحركة فيما بعد العالم الاسكندري (برتينوس) وتلاميذه. المصريون حوالي أواخر القرن الاول وأوائل القرن الثاني للميلاد فقد نقحوا الاملاء القبطي وكتبوا اللغة في الابجدية اليونانية البالغ عدد حروفها اربعة وعشرون واضافوا اليها سبعة حروف وهي (شاي وفاي وخاي وهورى وجنجا وكشيا وتي) اخذت من الديموطيقية لعدم وجود امثالها في اليونانية . ثم اضافوا حرفاً آخر وهو (صو) الذي يستعمل للدلالة على العدد «٩٠» كما هو الحال في اليونانية. ومن حسن الحظ ان حفظ لنا التاريخ بعض الكتابات القبطية القديمة التي ترجع الى العهد الذي لم يكن قد اعترف فيه بعد بالمسيحية ديناً رسمياً للدولة بالرغم من دخول المسيحية البلاد ايام حكم نيرون على يد القديس مرقس عام ٥٤ م .

ومن أشهر هذه الكتابات البردية التي طبعها العلامة (جريفث) [1] والنص المحفوظ بمتحف اللوفر ونشره (ارمان)[2]. فهذان النصان يعالجان اموراً تتصل بالسحر والفلك لا علاقة لها بالمسيحية بتاتاً . في البردية الاولى نجد ذكراً لنجم السعد وآخر لنجم النحس كما يوجد في النصين دعاء الى اوزيريس اله الموتى وانوبيس اله الجبانة ورع وايزيس . وغير هذه الكتابات عثر في اخميم على بطاقات للموميا يرجع تاريخها الى القرن الثاني الميلادي وبعضها مؤرخ بالعام الرابع من حكم الامبراطور هدريان وقد نشرها (شتيندورف)[3] . وكلما يتقدم بنا العهد نجد المسيحية تثبت في مصر فتنهزم امامها الوثنية ويضطر الامبراطور قسطنطين الى الاعتراف بها ديناً رسمياً له وللدولة حوالي عام

(١) F. L. L. Griffith, The old Coptic Horoscope of the Stobar Collection, Aeg. Z. 38, pp. 71—85.

(٢) A. Erman, Die aeg. Beschwoerungen des grossen Pariser Zauberpaprus, Aeg. Z. 1883, p. 89

(٣) Steindorff, Aeg. Z. 1890, p. 49 ; Die Mumien Etiketten

٣٢٥ م . وحوّل خلفهُ بعض المعابد المصرية القديمة الى كنائس كما اغلق الباقي منها ثم جاء الامبراطور (جوستنيان) فأرسل قائده (نرسيس) الى جزيرة فيلة حيث قضى على البقية الباقية من عبادة ايزيس واوزوريس . وهكذا ترى المسيحية تعزز بعد ان قدمت من ابنائها الشهداء الكثيرين ايام حكم (دوقلسيان) حوالي عام ٢٨٤ م . فأصبحت مصر بعد ذلك معقلاً للمسيحية ووطناً للديور والرهبنة ، واستطاع الاقباط أن يخلقوا فناً قبطياً متأثراً باليوناني حيناً وبالفرعوني حيناً آخر

أما اللغة القبطية وآدابها فقد استمرت حيّة حتى القرن العاشر الميلادي بدليل اننا نجد الاسقف ساويرس بن المقفع يقول ما معناه ان القلم العربي عرف عند أهل الديار المصرية كما اننا نعرف من جهة أخرى ان كثيراً من العرب عرفوا اللغة القبطية حتى نجد في أوائل الحكم العربي لغة الدواوين القبطية أو اليونانية . وظلت اللغة القبطية اللغة الرسمية لمصر حتى عهد عبد الله أخ الوليد بن عبد الملك بن مروان . الذي أحل العربية محلها سنة ٧١٤ م . ولما كانت سنة ٨٩٧ م قام الحاكم بأمر الله بن العزيز أحد ملوك الفاطميين وأمر بابطالها لغةً حية. واللغة القبطية كغيرها من اللغات تنقسم الى لهجات وقد ظهر ذلك جليًّا عند استخدام الأبجدية اليونانية لاستخدام الحروف الصائتة الى جانب الصامتة (المتحركة والساكنة) بخلاف الجاري في اللغات السامية التي تكتفي بالحروف الصامتة فقط . ونحن نستطيع ان نفرق بين خمس لهجات في القبطية ولا نستطيع ان نجزم بوجود أكثر من لهجتين في العصر الفرعوني . وأشهر اللهجات القبطية هي :

أولاً — البحيرية التي كانت أصلاً لهجة الاسكندرية عاصمة مصر الرسمية ، ايام اليونان والرومان ، وما جاورها في الوجه البحري . ومما زاد في انتشار هذه اللهجة انتقال بطاركة الاسكندرية الى (بابلون) أي الفسطاط او مصر القديمة ثم الى القاهرة واستخدامهم اللهجة البحرية كلغة رسمية للكنيسة . وما تزال هذه اللهجة مستعملة الى اليوم فقط في العبادات في الكنائس الارثوذكسية وبين قليل من الاسر ويلاحظ انها أكثر اللهجات تأثراً بالمفردات اليونانية لقربها من مواطن الثقافة اليونانية

ثانياً — اللهجة الصعيدية وهي لغة أهل طيبة (الأقصر) ومعظم سكان الصعيد الأعلى

ثالثاً — اللهجة الأخميمية وهي خاصة بأهل اخميم وأقرب اللهجات الى المصرية القديمة وأبعدها تأثراً بمفردات اللغة اليونانية وذلك لبعدها عن الأوساط الاجنبية

رابعاً — اللهجة الفيومية وهي لغة سكان الفيوم وما جاورها من البلدان

هذه نظرة عاجلة عرضت فيها للغة القبطية نشأتها وتطورها كما بينت ان لفظ قبطي هو اسم يطلق على أبناء مصر مسيحيها ومسلميها ، وما تحدث الى القراء عن أدب هذه اللغة